

الرسالة رقم: (٢٩) مجمل رسائل الإمام ابن حبيب الحنبلي

رِسَالَةٌ فِي
ذَمِّ قَسْوَةِ الْقَلْبِ
وَذِكْرِ أَسْبَابِهَا، وَمَا تَزُولُ بِهِ

عَلَّامُ الْغُيُوبِ

بسم الله الرحمن الرحيم مقدمة التحقيق

الحمد لله الذي فجّر من الحجارة الأنهار، وأجرى الماء في الفيافي والقفار، وهو المتفضل سبحانه بإحياء القلوب القاسية الميتة بكثرة الذكر والاستغفار، والصلاة والسلام على نبيه المختار، سيدنا محمد وعلى آله الأطهار، وصحبه الأبرار، ومن تبعهم على الهدى ما تعاقب الليل والنهار.

أما بعد:

فهذه رسالة لطيفة المبنى، جليلة المعنى، مُوصلة بإذن الله إلى الهدف الأسمى، تُعين المسلم على معرفة أسباب قسوة القلب فيجتنبها، ومعرفة أسباب إزالتها فيتمسك بها.

وهي نصيحة عظيمة من طب القلوب يُسديها الحافظُ ابن رجب رحمه الله تعالى لقارئ هذه الرسالة وسامعها، فيجدر بكل من يقف عليها أن يوصي بها إخوانه. فرحم الله كاتبها، ونفع بها قارئها، وجزى الخير من أعان على نشرها والعمل بها. آمين.

اعتمدت في إخراج هذه الرسالة النافعة على نسخة فريدة في مكتبة شهيد علي باشا في إصطنبول ضمن المجموع (٥٤٣)، وهي الرسالة الثالثة منه.

وعنوانها: «ذم قسوة القلب، وذكر أسبابها، وما تزول به».

وهي في (٤) لوحات، بخط العالم الفاضل محمد بن محمد بن عبد الدائم الباهي الحنبلي، وتاريخ نسخها ٧ جمادى الأولى ٧٨٧، فقد كتبت في حياة المصنف رحمه الله تعالى.

وقد خلط كثير من أصحاب الفهارس، وبعض من نشر هذه الرسالة بينها وبين غيرها من رسائل ابن رجب، وأوهموا أن لهذه الرسالة نسخ أخرى، وبعضهم يجعل هذه النسخة نفسها نسختين! وليس الأمر كذلك، فاقضى التنويه، والله تعالى أعلم.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه

محمد مجير الخطيب الحسني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ الْإِمَامُ الْعَلَامَةُ، الْحَافِظُ، زَيْنُ الدِّينِ بْنُ الشَّيْخِ أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ بْنَ رَجَبٍ
فَسَحَّ اللَّهُ فِي مُدَّتِهِ وَنَفَعَ بِهِ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ

رِسَالَةٌ فِي ذَمِّ قَسْوَةِ الْقَلْبِ، وَذِكْرِ أَسْبَابِهَا، وَمَا تَزُولُ بِهِ

أَمَّا ذَمُّ الْقَسْوَةِ: فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ
قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، ثُمَّ بَيَّنَّ وَجْهَ كَوْنِهَا أَشَدَّ قَسْوَةً بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا
يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾
[البقرة: ٧٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا
كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢]
فَوَصَّفَ أَهْلَ الْكِتَابِ بِالْقَسْوَةِ، وَنَهَانَا عَنِ التَّشَبُّهِ بِهِمْ.

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لَا يَكُونُ أَشَدَّ قَسْوَةً مِنْ صَاحِبِ الْكِتَابِ إِذَا قَسَا^(١).

وَفِي التِّرْمِذِيِّ، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُكْثِرِ الْكَلَامَ

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي «الْحَلِيَّةِ» (٩٨/٣) مِنْ كَلَامِ أَبِي نُضْرَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ.

بغير ذكر الله؛ فَإِنَّ كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوةٌ للقلب، وَإِنَّ أبعد الناس من الله القلبُ القاسي»^(١).

وفي «مسند البزار»، عن أنسٍ، عن النبي ﷺ قَالَ: «أربعةٌ مِنَ الشَّقَاءِ؛ جمودُ العينِ، وقساوةُ القلبِ، وطولُ الأملِ، والجِرْصُ على الدنيا»^(٢).

وذكره ابنُ الجوزيِّ في «الموضوعات» مِنْ طريقِ أبي داودَ النَّخَعِيِّ الكَذَّابِ، عن إسحاقَ بن عبد الله بن أبي طلحة، عن أنسٍ^(٣).

وقال مالكُ بن دينارٍ: ما ضَرَبَ عبدٌ بعقوبةٍ أعظمَ مِنْ قسوةِ القلبِ. ذكره عبدُ الله بنُ أحمدَ في «الزُّهد»^(٤).

وقال حذيفةُ المرعشيُّ: ما أَصِيبَ أَحَدٌ بِمُصِيبَةٍ أعظمَ مِنْ قساوةِ قلبه. رواه أبو نعيمٍ^(٥).

وَأَمَّا أسبابُ القسوةِ فكثيرةٌ:

منها: كثرةُ الكلامِ بغيرِ ذكرِ الله، كما في حديثِ ابنِ عمرَ السَّابِقِ.

ومنها: نقضُ العهدِ مع الله تعالى، قَالَ تعالى ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣].

قَالَ ابنُ عَقِيلٍ يوماً في وعظه: يَا مَنْ يَجِدُ مِنْ قلبه قسوةً! احذَرُ أَنْ تَكُونَ نَقَضْتَ عَهْداً فَإِنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ [المائدة: ١٣] الْآيَةُ^(٦).

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١١)، وقال: غريب.

(٢) أخرجه البزار في «مسنده» (٦٤٤٢) مِنْ طريقِ عبد الله بن سليمان، عن إسحاق وأبان، عن أنس.

(٣) «الموضوعات» (١٢٥/٣)، وقال: «لا يصح عن النبي ﷺ».

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص: ٢٥٩).

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢٦٩/٨).

(٦) ذكره المصنف رحمه الله في «الذيل على طبقات الحنابلة» (٣٥٣/١).

ومنها: كثرة الضحك، ففي الترمذي، عن الحسن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لا تكثر الضحك؛ فإن كثرة الضحك تُميت القلب».

وقال: روي عن الحسن، قوله^(١).

وخرج ابن ماجه، من طريق أبي رجاء الجزري، يعني: عن بُرْدِ بْنِ سِنَانٍ، عن مكحول، عن واثلة بن الأسقع، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كثرة الضحك تُميت القلب».

ومن طريق إبراهيم بن عبد الله بن حنين، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ^(٢).

ومنها: كثرة الأكل، ولا سيما إن كان من الشبهات أو الحرام.

قال بشر بن الحارث: خصلتان تُقْسِيَانِ الْقَلْبَ؛ كثرة الكلام وكثرة الأكل. ذكره أبو نعيم^(٣).

وذكر المروزي في «كتاب الورع» قال: قلت لأبي عبد الله يعني أحمد بن حنبل: يجد الرجل من قلبه رقة وهو يشبع؟ قال: ما أرى^(٤).

ومنها كثرة الذنوب، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

وفي «المسند» والترمذي، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن إذا أذنب كانت نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٠٥)، وقال: غريب.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢١٧، ٤١٩٣).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣٥٠ / ٨).

(٤) «الورع» للمروزي (٣٢٣).

زَادَتْ حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، فَذَلِكَ الرَّأْنُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: صَحِيحٌ^(١).

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الْبَدَنُ إِذَا عَرِيَ رَقٌّ، وَكَذَلِكَ الْقَلْبُ إِذَا قَلَّتْ خَطَايَاهُ أَسْرَعَتْ دَمَعَتُهُ^(٢).

وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ ابْنُ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تَمِيتُ الْقُلُوبَ وَيُورِثُكَ الذَّلَّ إِدْمَانُهَا
وَتَرَكْتُ الذُّنُوبَ حَيَاةَ الْقُلُوبِ وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا^(٣)

وَأَمَّا مُزِيلَاتُ الْقَسْوَةِ فَمُتَعَدَّدَةٌ أَيْضًا:

فَمِنْهَا: كَثْرَةُ ذِكْرِ اللَّهِ الَّذِي يَتَوَاطَأُ عَلَيْهِ الْقَلْبُ وَاللِّسَانُ.

قَالَ الْمُعَلَّى بْنُ زِيَادٍ: إِنَّ رَجُلًا قَالَ لِلْحَسَنِ: يَا أَبَا سَعِيدٍ! أَشْكُو إِلَيْكَ قَسْوَةَ قَلْبِي، قَالَ: أَدْنِهِ مِنَ الذِّكْرِ^(٤).

(١) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ (٧٩٥٢) وَاللَّفْظُ لَهُ، وَالتِّرْمِذِيُّ (٣٣٣٤) وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ (كَمَا فِي الْمَطْبُوعَةِ).

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي «الرِّقَّةِ وَالْبَكَاءِ» (٦٧) عَنْ فَيَاضِ بْنِ مُحَمَّدٍ سَمِعَهُ مِنْ بَعْضِ عُلَمَائِهِمْ، وَفِي الْمَطْبُوعَةِ: «إِذَا عَرِيَ دَقٌّ».

(٣) أَنَشَدَهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي «التَّوْبَةِ» (٩)، وَابْنُ الْمُقَرَّرِ فِي «الْمَعْجَمِ» (١٢٠٥)، وَابْنُ بَيْهَقٍ فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ» (٩/٤٢٣)، وَعِنْدَهُمْ اخْتِلَافَاتٌ طَفِيفَةٌ فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ، وَابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي «جَامِعِ بَيَانَ الْعِلْمِ وَفَضْلِهِ» (١/٦٣٧) وَهُوَ الْمَطَابِقُ لِمَا هُنَا.

(٤) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الزُّهْدِ» (١٥١٠)، وَعِنْدَهُ: «أَدْنَهُ مِنَ الذِّكْرِ» أَي: مِمَّنْ يَذْكُرُ، وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي «الرِّقَّةِ وَالْبَكَاءِ» (٤٨)، وَالْخِرَاطِيُّ فِي «اعْتِلَالِ الْقُلُوبِ» (٥٣).

وقال وهيبُ بنُ الوردِ: نظرنا في هذا الحديث فلم نجد شيئاً أرقَّ لهذه القلوبِ ولا أشدَّ استِجلاباً للحقِّ من قراءة القرآنِ لمن تدبَّره^(١).

وقال يحيى بنُ معاذٍ وإبراهيمُ الخَوَّاصُ: دواءُ القلبِ خمسةُ أشياء: قراءةُ القرآنِ بالتفكيرِ، وخلاءُ البطنِ، وقيامُ الليلِ، والتَّضرُّعُ عند السَّحَرِ، ومُجالسةُ الصَّالحينَ^(٢).

والأصلُ في إزالة قسوة القلوبِ بالذكرِ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي نَقَّشَ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

وفي حديث عبد العزيز بن أبي رَوَّادٍ مُرسَلاً، عن النبي ﷺ: «إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ لَتَصْدَأُ كَمَا يَصْدَأُ الْحَدِيدُ» قيل: فما جلاؤها يا رسول الله؟ قال: «تِلَاوَةُ كِتَابِ اللَّهِ وَكَثْرَةُ ذِكْرِهِ»^(٣).

ومنها: الإحسانُ إلى اليَتَامَى والمساكينِ.

روى ابنُ أبي الدنيا، ثنا عليُّ بنُ الجعدِ، حدَّثني حمَّادُ بنُ سَلَمَةَ، عن أبي عمرانَ

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/١٤٢).

(٢) هو مشهور عن إبراهيم الخواص، أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/٣٢٧). وهو عن يحيى في «صفة الصفوة» (٢/٢٩٣).

(٣) هذا اللفظ ذكره أبو الليث السمرقندي في تفسيره «بحر العلوم» (٣/٦٤).

وروي متصلاً في «الحلية» (٨/١٩٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الْجَوْنِيُّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَجُلًا شَكَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَسْوَةَ قَلْبِهِ فَقَالَ: «إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ فامْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ وَأَطْعِمِ الْمَسَاكِينَ». إسناده جيد^(١).

وكذا رواه ابنُ مَهْدِيٍّ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ^(٢).

ورواه جَعْفَرُ بْنُ مُسَافِرٍ، ثنا مُؤَمَّلٌ، نا حَمَّادٌ، عَنْ أَبِي عِمْرَانَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَهَذَا كَأَنَّهُ غَيْرُ مُحْفَوظٍ عَنْ حَمَّادٍ.

ورواه الْجَوْزْجَانِيُّ، ثنا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الرَّقَاشِيُّ، ثنا جَعْفَرُ، ثنا أَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ. مُرْسَلٌ وَهُوَ أَشْبَهُ، وَجَعْفَرٌ أَحْفَظُ لِحَدِيثِ أَبِي عِمْرَانَ مِنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ^(٣).

وروى أَبُو نُعَيْمٍ، مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ صَاحِبٍ لَهُ، أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ كَتَبَ إِلَى سَلْمَانَ: ارْحَمِ الْيَتِيمَ، وَأَدِنِهِ مِنْكَ، وَأَطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِكَ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَتَاهُ رَجُلٌ يَشْتَكِي قَسَاوَةَ قَلْبِهِ فَقَالَ: «أَتُحِبُّ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ؟» فَقَالَ لَهُ: نَعَمْ، فَقَالَ «أَدِنِ الْيَتِيمَ مِنْكَ، وَامْسَحْ رَأْسَهُ، وَأَطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِكَ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُلَيِّنُ قَلْبَكَ وَتَقْدِرُ عَلَى حَاجَتِكَ»^(٤).

قَالَ أَبُو نُعَيْمٍ: وَرَوَاهُ ابْنُ جَابِرٍ وَالْمَطْعَمُ بْنُ الْمَقْدَامِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ، أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ كَتَبَ إِلَى سَلْمَانَ مِثْلَهُ^(٥).

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقعة والبكاء» (٤٧).

(٢) ورواه عن حماد بن سلمة جماعة هكذا، ومنهم من ذكر رجلاً مبهماً بين أبي عمران وأبي هريرة. أخرج ذلك: أحمد في «المسند» (٧٥٧٦) (٩٠١٨)، وعبد بن حميد (١٤٢٦)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٥٢٣)، والخرائطي في «اعتلال القلوب» (٥٢).

(٣) أخرجه الخرائطي في «مكارم الأخلاق» (٦٥٧).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢١٤ / ١) في حديث طويل.

(٥) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٢١٥ / ١).

ونقل أبو طالب، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ - يعني أحمد بن حنبل - فقال له: كَيْفَ يَرِقُّ قَلْبِي؟ قَالَ: ادْخُلِ الْمَقْبَرَةَ، وَامْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ^(١).

ومنها: كثرة ذكر الموت.

ذكر ابن أبي الدنيا بإسناده، عن منصور بن عبد الرحمن، عن صفية أَنَّ امرأةً أَتَتْ عائشة تشكو إليها القسوة، فقالت: أَكْثِرِي ذِكْرَ الْمَوْتِ، يَرِقُّ قَلْبُكَ وَتَقْدِرِينَ عَلَى حَاجَتِكَ، قالت: ففعلت فأنست من قلبها رُشدًا، فجاءت تشكر لعائشة رضي الله عنها^(٢).

وكان غير واحد من السلف منهم سعيد بن جبيرة، وربيع بن أبي راشد يقولون: لو فارق ذكر الموت قلوبنا ساعة لفسد قلوبنا^(٣).

وفي «السُّنَنِ»، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ «أَكْثَرُوا ذِكْرَ هَازِمِ اللَّذَاتِ» الموت^(٤).

وروي مرسلاً، عن عطاء الخراساني قَالَ: مرَّ رسولُ اللَّهِ ﷺ بمجلسٍ قد استعلاه الضَّحِكُ فَقَالَ: «شُوبُوا مَجْلِسَكُمْ بِذِكْرِ مُكَدِّرِ اللَّذَاتِ» قالوا: وما مُكَدِّرُ اللَّذَاتِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الموت»^(٥).

(١) نقله ابن أبي يعلى في «طبقات الحنابلة» (١/ ٨٢).

(٢) ذكره الغزالي في «الإحياء»، وعزاه الزبيدي في «إتحاف السادة المتقين» (١٠/ ٢٣١) إلى ابن أبي الدنيا في «كتاب الموت».

(٣) أخرجه سعيد: أحمد بن حنبل في «الزهد» (٢١٦٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٧٩).

وأخرجه عن ربيع بن أبي راشد: ابن المبارك في «الزهد» (٢٦٠) (٢٦٦)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٦٥٨٠) وأحمد في «الزهد» (٢٣٣٧)، وابن أبي الدنيا في «العزلة والانفراد» (١٢٥ - ١٢٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٧٥ - ٧٦، ٧٧، ٧٨).

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٧٩٢٥)، والترمذي (٢٣٠٧) وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٤٢٥٨).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الموت» كما ذكر العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (إتحاف السادة (٢٢٩/ ١٠).

ومنها: زيارة القبور بالتفكير في حال أهلها ومصيرهم.

وقد سبق قول أحمد للذي سأل: ما يرق قلبي؟ قال: ادخل المقبرة.

وقد ثبت في «صحيح مسلم»، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «زوروا القبور، فإنها تذكركم الموت»^(١).

وعن بريدة، أن النبي ﷺ قال: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة». رواه أحمد والترمذي وصححه^(٢).

وعن أنس، أن النبي ﷺ قال: «كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور، ثم قد بدا لي أنها^(٣) ترق القلب، وتدمع العين، وتذكركم الآخرة، فزوروها ولا تقولوا هجراً». رواه الإمام أحمد وابن أبي الدنيا^(٤).

وذكر ابن أبي الدنيا، عن محمد بن صالح التمار قال: كان صفوان بن سليم يأتي البقيع في الأيام فيمرُّ بي، فاتبعته ذات يوم وقلت: والله لأنظرنَّ ما يصنع، قال: فقتع رأسه وجلس إلى قبر منها، فلم يزل يبكي حتى راحته، قال: ظننت أنه قبر بعض أهله، قال: فمرَّ بي مرة أخرى، فاتبعته فقعد^(٥) إلى جنب قبر غيره ففعل مثل ذلك، فذكرت ذلك لمحمد بن المنكدر، وقلت: إنما ظننت أنه قبر بعض أهله، فقال محمد: كلُّهم أهله وإخوانه؛ إنما هو رجلٌ يُحرِّك قلبه بذكر الأموات كلما عرَّضت له قسوة، قال: ثم جعل محمد بن المنكدر بعدُ يمرُّ بي فيأتي البقيع، فسلمت عليه ذات

(١) أخرجه مسلم (٩٧٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢٣٠٣٨) (٢٣٠٥٢)، والترمذي (١٠٥٤) وقال: حسن صحيح. وأصله في مسلم (٩٧٧).

(٣) في الأصل: «أنه»، وأثبت ما يوافق المسند.

(٤) أخرجه الإمام أحمد (١٣٤٨٧).

(٥) في الأصل: «فقعدت»، والصواب المثبت.

يوم فقال: ما نفعتك مَوْعِظَةُ صفوان! قال: فظننتُ أَنَّهُ انتفعَ بما أَلْقَيْتُ إِلَيْهِ مِنْهَا^(١).
وذكرَ أيضًا أَنَّ عَجُوزًا مُتَعَبِّدَةً مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ كانت تُكثِرُ إتيانَ القُبُورِ، فعوتبتُ
في ذلك فقالت: إِنَّ القلبَ القاسِيَّ إذا جفا لم يُلَيِّنْهُ إِلَّا رسومُ البلى، وإِنِّي لآتي
القُبُورَ وكأَنِّي أنظرُ إليهم وقد خَرَجُوا مِنْ بَيْنِ أَطْباقِها، وكأَنِّي أنظرُ إلى تلكِ الوجوهِ
المُتَعَفِّرةِ، وإلى تلكِ الأجسامِ المُتَغَيِّرةِ، وإلى تلكِ الأكفانِ الدَّنِيسَةِ، فيا له منظرٌ [كرِهٌ
لو أَشْرَبَه العبادُ قلوبَهم، ما أَثكل] ^(٢) مرارةَ الأنفُسِ، وأشدَّ تلفه الأبدانِ^(٣).

وقال زيادُ النُمَيْرِيُّ: ما اشتقتُ إلى البُكاءِ إِلَّا قدِرتُ عليه، قالَ له رجلٌ: وكيفَ
ذلكَ؟ قالَ: إذا أردتُ ذلكَ خَرَجْتُ إلى المقابرِ فجلستُ إلى بعضِ تلكِ القُبُورِ، ثمَّ
فكرتُ فيما صاروا إِلَيْهِ مِنَ البلى، وذكرْتُ ما نحنُ فِيهِ مِنَ المُهْلَةِ، قالَ: فعندَ ذلكَ
تَخْتَفِي^(٤) أطواري.

وقلتُ واللهُ المُوفِّقُ^(٥):

وَتَعْمُرُ ما لِعُمُرانِ خُلِقْتا	إلى دارِ الخرابِ تَظُلُ تَبْنِي
لَقَدْ وَعَظْتُكَ لَكِنْ ما اتَّعَظْتا	وما تَرَكَتُ لَكَ الأيَّامُ عُذْرًا
وَتُعَلِّنُ إِنَّمَا المَقْصودُ أَنتا	تُنادي لِلرَّحِيلِ بِكُلِّ حينِ
عَنِ الدَّاعِي كَأَنَّكَ ما سَمِعْتا	وَتُسَمِعُكَ النَّداءَ وَأَنْتَ لاهِ
وعنْ إعدادِ زادٍ قَدْ غَفَلْتا	وَتَعْلَمُ أَنَّهُ سَفَرٌ بعيدٌ

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٣٢/٢٤) من طريق ابن أبي الدنيا.

(٢) في الأصل: «منظر لم أسره» ثم بياض بمقدار كلمة «قلوبهم ما أثكل» والتصحيح من «صفة الصفوة».

(٣) ذكره الغزالي في «إحياء علوم الدين» (٤٩٣/٤)، وابن الجوزي في «صفة الصفوة» (٥٠٣/٢).

(٤) يمكن قراءتها: «تختبي» والمعنى واحد.

(٥) فهذه الأبيات قالها المصنف رحمه الله قبل وفاته بثلاثة عشر عاماً سنة (٧٨٢) رحمه الله.

تَنَامُ وَطَالِبُ الْآيَامِ سَاعٍ
مَعَائِبُ هَذِهِ الدُّنْيَا كَثِيرٌ
يَضِيعُ الْعُمْرُ فِي لَعِبٍ وَلَهْوٍ
فَمَا بَعْدَ الْمَمَاتِ سِوَى جَحِيمٍ
وَلَسْتُ بِأَمَلٍ رَدًّا لِلدُّنْيَا
وَأَوَّلُ مَنْ أَلُومَ الْيَوْمَ نَفْسِي
أَيَا نَفْسِي أَخَوْضًا فِي الْمَعَاصِي
وَأَرْجُو أَنْ يَطُولَ الْعُمْرُ حَتَّى
فِيَا غُصْنَ الشَّبَابِ تَمِيلُ زَهْوًا
عَلِمْتَ فَدَعْ سَبِيلَ الْجَهْلِ وَاحْذَرْ
وَيَا مَنْ يَجْمَعُ الْأَمْوَالَ قُلْ لِي:
وَيَا مَنْ يَتَّبِعِي أَمْرًا مُطَاعًا
جَنَحْتَ إِلَى الْوِلَايَةِ لَا تُبَالِي
أَلَا تَذَرِي بِأَنَّكَ يَوْمَ صَارَتْ
وَلَيْسَ يَقُومُ فَرَحُهُ قَدْ تَوَلَّى
وَلَا تُنْهَلُ فَإِنَّ الْوَقْتَ سَيْفٌ
تَرَى الْآيَامَ تُبْلِي كُلَّ غُصْنٍ
وَتَعْلَمُ أَنَّ الدُّنْيَا مَنَامٌ
فَكَيْفَ تُصَدُّ عَنْ تَحْصِيلِ بَاقٍ

وَرَاءَكَ لَا يَنَامُ فَكَيْفَ نِمْنَا
وَأَنْتَ عَلَى مَحَبَّتِهَا طُبْعْنَا
وَلَوْ أُعْطِيتَ عَقْلًا مَا لَعَبْنَا
لِعَاصِرٍ أَوْ نَعِيمٍ إِنْ أَطْعْنَا
فَتَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْنَا
فَقَدْ فَعَلْتَ نَظَائِرَ مَا فَعَلْنَا
وَبَعْدَ الْأَرْبَعِينَ وَفَيْتَ سِتًّا
أَرَى زَادَ الرَّحِيلِ وَقَدْ تَأْتَى
كَأَنَّكَ قَدْ مَضَى زَمَنٌ وَشِبْنَا
فَضِيحَةً قَدْ عَلِمْتَ وَمَا عَمِلْنَا
أَيُّمْنُكَ الرَّدَى مَا قَدْ جَمَعْنَا؟
لِيَسْمَعْ نَاقِدٌ مَنْ قَدْ أَمَرْنَا
أَجُرْتَ عَلَى الْبَرِّيَّةِ أَمْ عَدَلْنَا
إِلَيْكَ بِغَيْرِ سَكِّينٍ ذُبَحْنَا
بِتَرْحَةٍ يَوْمَ تَسْمَعُ قَدْ عَزَلْنَا
فَإِنْ لَمْ تَغْتَنِمْهُ فَقَدْ أَضَعْنَا
وَتَطْوِي مِنْ سُرُورِكَ مَا نَشَرْنَا
فَأَخْلَى مَا تَكُونُ بِهِ انْتَبَهْنَا
وَبِالْفَانِي وَزُخْرُفِهِ شُغِلْنَا

هي الدنيا إذا سَرَّتْكَ يَوْمًا
تَغْرُكَ كَالسَّرَابِ فَأَنْتَ تَسْرِي
وتشهدكم أبادت من حبيب
فتدْفِنُهُمْ وتَرْجِعُ ذَا سُرُورٍ
وتنساهاهم وأنتَ غداً سَتُنْسَى^(٢)
تُحَدِّثُ عَنْهُمْ وتَقُولُ: كانوا
حديثك هم وأنتَ غداً حديثٌ
يعودُ المرءُ بعدَ الموتِ ذِكْرًا
سَلِ الْآيَامَ عَنْ عَمٍّ وَخَالٍ
أَلَسْتَ تَرَى دِيَارَهُمْ خَلَاءً

تَسُوُّكَ ضِعْفَ مَا فِيهَا سُرُورًا
إِلَيْهِ وَلَيْسَ تَشْعُرُ أَنْ غُرُرْتَ^(١)
كَأَنَّكَ آمِنٌ مِّمَّا شَهِدْتَ
بِمَا قَدْ نِلْتَ مِنْ إِرْثٍ وَحُزْرَا
كَأَنَّكَ مَا خُلِقْتَ وَلَا وُجِدْتَ
نَعَمْ كَانُوا كَمَا وَاللَّهِ كُنَّا
لِغَيْرِهِمْ فَأَحْسِنْ مَا اسْتَطَعْنَا
فَكُنْ حَسَنَ الْحَدِيثِ إِذَا ذُكِرْنَا
وَمَالِكَ وَالسُّؤَالَ وَقَدْ عَلِمْنَا
فَقَدْ أَنْكَرْتَ مِنْهَا مَا عَرَفْنَا

ومنها: النَّظَرُ فِي دِيَارِ الْهَالِكِينَ، وَالاعْتِبَارُ بِمَنَازِلِ الْغَابِرِينَ.

روى ابنُ أبي الدنيا في «كتابِ التَّفَكُّرِ وَالاعْتِبَارِ» بإسناده، عن عُمَرَ بْنِ سُلَيْمٍ
الْبَاهِلِيِّ، عن أَبِي الْوَلِيدِ، أَنَّهُ قَالَ: كَانَ ابْنُ عُمَرَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَعَاهَدَ قَلْبَهُ يَأْتِي الْخُرْبَةَ
فَيَقِفُ عَلَى بَابِهَا فَيُنَادِي بِصَوْتٍ حَزِينٍ، فَيَقُولُ: أَيْنَ أَهْلُكَ؟ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى نَفْسِهِ
فَيَقُولُ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] ^(٣).

وروى في «كتابِ الْقُبُورِ» بإسناده، عن مُحَمَّدِ بْنِ قُدَّامَةَ قَالَ: كَانَ الرَّبِيعُ بْنُ

(١) فِي الْأَصْلِ: «أَنْ قَدْ غُرُرْتَ»، وَلَا يَسْتَقِيمُ.

(٢) مِنَ الْمَوَاضِعِ الَّتِي صَحَّفَهَا النَّاثِرُونَ، وَقَدْ صَحَّفُوا مِنْ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ نَحْوَ خَمْسَةِ مَوَاضِعَ.

(٣) عَزَاهُ السَّيُوطِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ «الدَّرِّ الْمَثُورِ» إِلَى ابْنِ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِهِ هَذَا.

خُثِيمٍ إِذَا وَجَدَ مِنْ قَلْبِهِ قَسْوَةً يَأْتِي مَنْزَلَ صَدِيقٍ لَهُ قَدْ مَاتَ فِي اللَّيْلِ فَيُنَادِي: يَا فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ، يَا فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ، ثُمَّ يَقُولُ: لَيْتَ شِعْرِي مَا فَعَلْتَ وَمَا فَعِلَ بِكَ، ثُمَّ يَبْكِي حَتَّى تَسِيلَ دُمُوعُهُ فَيُعْرِفُ ذَاكَ فِيهِ إِلَى مِثْلِهَا^(١).

ومنها: أَكُلِ الْحَلَالِ.

روى أبو نَعِيمٍ وَغَيْرُهُ، مِنْ طَرِيقِ عُمَرَ بْنِ صَالِحٍ الطَّرْسُوسِيِّ قَالَ: ذَهَبْتُ أَنَا وَبِحَيِّ الْجَلَاءِ - وَكَانَ يُقَالُ: إِنَّهُ مِنَ الْأَبْدَالِ - إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ فَسَأَلْتُهُ، وَكَانَ إِلَى جَنْبِهِ فُورَانُ وَزُهَيْرٌ، [وَهَارُونَ]^(٢) الْحَمَّالُ، فَقُلْتُ: رَحِمَكَ اللَّهُ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ! بِمَ تَلِينُ الْقُلُوبُ؟ فَنَظَرَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَغَمَزَهُمْ بَعِينَهُ ثُمَّ أَطْرَقَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّ! بِأَكْلِ الْحَلَالِ. فَمَرَرْتُ كَمَا أَنَا إِلَى أَبِي نَصْرِ بْنِ بَشْرِ بْنِ الْحَارِثِ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا نَصْرِ! بِمَ تَلِينُ الْقُلُوبُ؟ فَقَالَ: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِينُ الْقُلُوبِ﴾ [الرعد: ٢٨]، قُلْتُ: فَإِنِّي جِئْتُ مِنْ عِنْدِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: هَيْه! أَيَّ شَيْءٍ قَالَ لَكَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ؟ قُلْتُ: قَالَ: بِأَكْلِ الْحَلَالِ، فَقَالَ: جَاءَ بِالْأَصْلِ، جَاءَ بِالْأَصْلِ، فَمَرَرْتُ إِلَى عَبْدِ الْوَهَّابِ الْوَرَّاقِ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا الْحَسَنِ! بِمَ تَلِينُ الْقُلُوبُ؟ فَقَالَ: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِينُ الْقُلُوبِ﴾ [الرعد: ٢٨]، قُلْتُ: فَإِنِّي^(٣) جِئْتُ مِنْ عِنْدِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ، فَاحْمَرَّتْ وَجَتَاهُ مِنَ الْفَرَحِ، فَقَالَ لِي: أَيَّ شَيْءٍ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ؟ قُلْتُ: بِأَكْلِ الْحَلَالِ، فَقَالَ: جَاءَكَ بِالْجَوْهَرِ جَاءَكَ بِالْجَوْهَرِ.

الأصلُ كما قال، الأصلُ كما قال^(٤).

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٨٦٨).

(٢) سقط من الأصل، واستدرسته من المصادر.

(٣) في الأصل: «فبأي شيء» والتصويب من المصادر.

(٤) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٨٢/٩)، وابن الجوزي في «مناقب الإمام أحمد» (ص: ٢٧٠).

[ل]بعضهم عَفِيَ عنه:

لَقَدْ حَكَيْتَ وَلَكِنْ فَاتَكَ الشَّنْبُ^(١)

والحمدُ لله وحده^(٢).

(١) شطر مشهور لبیت من الشعر، صدره:

يا بارقاً بأعالي الرقمتين بدا

والشطر الثاني مثل يضرب لمن لا يصل إلى شيء.

فيريدُ من ذكره هنا: إذا لم تأكل الحلال لم ينفعك كثرة العمل!

وانظر في خبر هذا البيت «فوات الوفيات» لابن شاکر الکتبی (٣/ ٤١٤).

(٢) تاريخ نسخ الرسالة قبلها، وهي «شرح حديث ابن عباس: يا غليم» في يوم الجمعة ٦ جمادى

الأولى سنة ٧٨٧، وتاريخ نسخ الرسالة التي تليها، وهي «في الخشوع وانكسار القلب للرب» في

يوم السبت ٧ جمادى الأولى سنة ٧٨٧.

فيكون نسخ هذه الرسالة «ذم قسوة القلب» في يوم السبت ٧ جمادى الأولى سنة ٧٨٧. وهذه

الرسائل بخط محمد بن محمد بن عبد الدائم الباهي الحنبلي رحمه الله تعالى.